في بلاط الخلفاء

بين الشعبي وعبد الملك

للأستاذ علي الجندي

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

أقبل الخليفة على رجل جالس بين يديه يرتدي جبة[1] خزّ قد ابيض شعر رأسه ولحيته ، وتدلّى من عنقه صليب ذهب ، ورائحة الخمر تنفح من عارضيه ! فقال له : ويحك ! من أشعر الناس ؟ فأجاب الرجل — وفي صوته رنة الزهو والمخيلة والثقة بالنفس — أنا يا أمير المؤمنين

ولم يكد الشعبي يسمع هذه الكلمة حتى تمتر وجهه ودارت به الأرض ، فذهل للمرة الثانية عن آداب السلوك في حضرة الملوك ، فصاح بصوت يقطر غيظاً : من هذا يا أمير المؤمنين الذي يزعم أنه أشعر الناس ؟

ما كان أغنى الشعبي عن هذا السؤال لو أنه روّى في الأمر قليلاً ! ترى من يكون هذا الجالس بين يدي الخليفة جلسة الصديق المدلّ بمكانته غير أمدح مُدّاح الإسلام ، وآدب أدباء النصرانية ، ولسان تغلب ابنة وائل ومِدره ربيعة ، والمنافح عن البيت الأموي وشاعر أمير المؤمنين أبو مالك الأخطل ؟

لم يستطع عبد الملك أن يكتم استعجابه من عجلة الشعبي بالسؤال وجهله بشاعره الفذ وجرأته عليه ! ولكنه تكلف الحلم ورمى الشعبي بنظرة نفذت إلى أعماقه قائلاً : يا شعبي ، هذا شاعرنا الأخطل

وكان ما حدث كافياً أن يرد الشعبي إلى صوابه ويُنشّأ من غضبه على الأخطل ، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث ، فولّى وجهه شطره — زاوياً ما بين عينيه — وهتف : يا أخطل ، أشعر منك الذي يقول :

هذا غلامٌ[2] حسنٌ وجهُه مُقْتَبَلُ الخيرِ سريعُ التَّمام

للحارث الأكبر والحارث الأصغر ، والحارثُ خيرُ الأنام
خمسةٌ آباؤهم ما هم ، هُمُو خيرُ من يشرب صوبَ الغمام

وكأن عبد الملك أعجبته هذه الأبيات فسرّى عنه وقال : ردّدها عليّ . فردّدها الشعبي عليه حتى حفظها

زال هذا التحدّي من الأخطل وشعر بالصغار والضعة ، فسح بيده على جبينه الندّي وقال في غمغمة الضجير : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فمال عبد الملك على أحد جانبيه قائلاً : هذا الشعبي فقيه العراق . فزمّ الأخطل بأنفه وأرسل نفساً عميقاً وقال : أمير المؤمنين — حفظه الله — إنما سألني عن أشعر أهل زمانه ، ولو قد سألني عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حريّاً أن أقول كما قلت

وهمّ الشعبي أن يتكلم فقاطعه عبد الملك بالسؤال عن حاله — وقد شُغِل بالجوار عن ذلك — فقال : إني بخير يا أمير المؤمنين

ومضى يتأنق في صوغ المعاذير عما كان من خلافه على الحجاج وخروجه مع ابن الأشعث

وكان عبد الملك نبيلاً حقاً فابتدر قائلاً : مَهْ يا شعبي فإنا لا نحتاج إلى هذا المنطق ، ولست تراء منا في قول ولا فعل حتى نفترق ! وأراد أن يزيد في طمأنينته فغير وجهة الحديث قائلاً : ما تقول في النابغة ؟ فقال الشعبي : إن عمر بن الخطاب قد حكم له بالسبق في غير موطن على الشعراء . وذلك أنه خرج يوماً — وبيابه وفد غطفان — فقال : يا معشر غطفان ، أي شعرائكم الذي يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : النابغة . قال : فأيكم الذي يقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قالوا : النابغة . قال : فأيكم الذي يقول :

إلى ابن محرّقٍ[1] أعملت رحلي وراحلتي وقد هدأت العيون
أتيتك عارياً ، خَلَقاً ثيابي على خوف تظنّ بيَ الظنون
فألفيت الأمانةَ لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : النابغة قال هذا أشعر شعرائكم

(١) تراجم الأخطل في الأغاني وغيرها
(٢) الأبيات للنابغة الذبياني

(١) يمدح النعمان بن المنذر

ثم أقبل عبد الملك على الأخطل فقال : أتحب أن لك قياداً بشعرك شعرَ أحد من العرب ، أو تحب أنك قلته؟ قال : لا ، والله ، إلا أني قد وَدِدت أني قلت أبياتاً قالها رجل منا ، كان والله مُفْدِعاً[1] القناع ، قليل الشماخ ، قصير الذراع ! قال عبد الملك : وماذا قاله ؟ فأنشده الأخطل القصيدة :

إنا محيوك فاسلم أيها الطَّلَل وإن بَليتَ وإن طالت بك الطيل

حتى وصل إلى قوله :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقبل أن يسمع الشعبي رأى عبد الملك في الشعر ، عنف بالأخطل في لهجة المتهكم الساخر : تالله لقد قال القطامي أحسن من هذا ! فأدنى عبد الملك قفاحة إلى أنفه فشمها ، ثم قال : وماذا قال القطامي ؟ فأنشده الشعبي :

طرقت جَنُوبُ[2] رحالَنا من مطرَق ما كنت أحسبه قريب المعبَق

ومر في القصيدة إلى قوله :

وإذا يصيبك — والحوادث جمة —

حَدَثٌ ، حداك إلى أخيك الأوثق

ليت الهموم عن الفؤاد تفرقت وحلى التكلم للسان المطلق

فترنح عبد الملك طرباً إلى الشعر وإعجاباً به! وصاح : ثكلت القطامي[3] أمه ! هذا — والله — الشعر !

ونظر عبد الملك إلى الأخطل ، فإذا هو كالمغشي عليه من الموت فأخذته الحمية لشاعره ، وداخلته الشفقة عليه ، فقال ينعش نفسه ويشد سَمْتَها : ما أشعرك يا أخطل حين تقول في وصف الخمر وتظل تنصفنا[4] بها قروية إبريقُها برقاعه ملثومُ فإذا تعاورت الأكفُّ زجاجها نفحتْ فشمَّ رياحها المركوم

لم يخف على الأخطل ما أراده الخليفة ، فألقى على وجهه نظرة ملؤها الغبطة والرضاء ! ثم عطف على الشعبي — والزهو يعبث بعطفيه — فقال : أسمعت بمثل هذا يا فقيه العراق ؟ !

فتربع الشعبي في مجلسه ، وتنحنح ، وأمرّ يده على لحيته إمراراً خفيفاً ، ثم صاح في وجه الأخطل : بعض عُجْبك ! فأشعر منك والله الذي يقول :

وأدكنَ[1] عاتقٍ حَجَلٍ رَحَلْ سَبَحْتُ براحه شرباً كراما

من اللائي حِلِلن على المطايا كريح المسك تستلُّ الزكاما

فقال الأخطل : ويحك ! ومن يقول هذا ؟ قال الشعبي : يقوله شيخك أعشى قيس . فصاح الأخطل كمن أصابه مسٌّ : قُدُّوس قدوس ! !

ولم يسع عبد الملك إلا أن يحكم للأعشى على الأخطل : إذ هناك بون بعيد بين خمر يشمها الزكوم ، وخمر تستلُّ منه الزكام ! وهنا يشعر الأخطل بالخطر المحدق به ، ويرى أن ريحه قد لاقت إعصاراً ! وأنه رمى من هذا العراق الدخيل بالداهية النكراء ! لقد استطاع أن يسدد إليه سهاماً قاتلة في جلسة واحدة ! فما الظن به إذا تطاولت المدة وتراخت الأيام ؟ ! إنه لا محالة سينطبه على مكانته من الخليفة ، وسيسحب عليه ذيل الخمول ! فتنبهت في نفسه غريزة المقاومة التي أرهفها طول النضال بينه وبين جرير وغيره في ميدان المفاخرة ! فورم أنفه وانتفخت أوداجه ، وانتفشت لحيته ، ودارت عيناه في رأسه كأنهما جذوتان ساعرتان ! وفرقاء يدير فيه لساناً كأنه لسان ثور ! واتجه إلى الشعبي هاتفاً بصوت فيه مشابه من هدير البعير المُنتَفِل : إسمع يا شعبي ، إن لك فتوناً في الحديث وشجوناً في المحاضرة ، وإن لنا طريقاً واحداً لا تحسن غيره ، ولست إخالك غير ناذر من عِنانك حتى تحملني على أكتاف قومك فأدفعهم حرَضاً ! !

تملكت هذه الكلمات النارية أفاعيلها في الشعبي ! فمثله لا ينكر صولة هذا التغلبي الذي لم يتورع عن هجاء الأنصار ! ويعرف أن أبياتاً من هجائه المضّ الخبيث قد ترمي بقومه من حالق وتجللهم عارَ الأبد ! فيكون أشأم همدانيّ على همدان !

ولم يكد يتمثل الشعبي سوء هذه المغبّة حتى ذابت حماسته فقبع في مكانه كالتفحف الخشيب ! وساورته الرِّعدة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ! فالتفت إلى الأخطل ضارعاً يقول : أقِلْني

(١) مظلم (٢) اسم امرأة (٣) يقصد النسيب منه لا الدعاء عليه
(٤) تحفنا وتسقينا

(١) يصف زقا من زقاق الخمر بالدكنة والاتساع والعظم

هذه المرة يا أبا مالك ! ولك علىّ عهد الله وميثاقه ألا أعود لمثلها أبداً !

وأحسّ الأخطل نشوة الظفر ! فقال (ماطًّا صوته) : ومن يضمن لى ذلك أيها الشيخ ؟ فرفع الشعبي إلى عبد الملك عينين منكسرتين متوسّلتين قائلاً : أميرُ المؤمنين

فضحك عبد الملك حتى بدت له سِنّ سوداء كان يستره !

وقال : أنا ضامن يا أخطل ألاّ يعرض لك بشيء بعد هذا !

فقال الأخطل : وأنا قد صفحت عنه يا أمير المؤمنين !

وأراد عبد الملك أن يصل ما انقطع من الحديث فقال : يا شعبي أى شعراء الجاهلية أشعر من النساء ؟ فقال الشعبي : الخنساء . قال : ولم فضلتها على غيرها ؟ قال : لقولها فى أخيها صخر :

وقائلةٍ (والنعشُ قد فات خطوَها

لتدركه) : يا لهف نفسى على صخرِ

ألا تكلت أمُّ الذين غدوْا به

إلى القبر ! ماذا يحملون إلى القبر ؟ !

فقال عبد الملك : أشعر منها ـ والله ـ ليلى الأخيلية حيث تقول فى توبة :

مرفهف الكَشْحِ والسربال مُنْخرق

عنه القميصُ لسير الليل مُحتقِر

لا يأمن الناس مُمْساه ومُصْبحه

فى كل حىّ (وإن لم يَغْزُ) يُنتظر

كان لكلام عبد الملك أثر عميق فى نفس الشعبي ، فانخزل انخزالاً شديداً وكَسَف باله ! لقد انتصر على شاعر الخليفة ولكنّ الخليفة لم يُسَرّ أن أخذ له بالثأر المُبين ! وقرأ عبد الملك فى وجه الشعبي ما يختلج فى صدره من أَلَمٍ بَرِح ! فقال : يا شعبي لعله قد شقّ عليك ما سمعت ! فقال : إى والله أشدّ المشقّة ! إننى لم أُفِدْك إلا أبيات النابغة (هذا غلام حسن وجهه ...) وقد أفدتنى أفضل منها

فقال عبد الملك : يا شعبي ، إنما أعلمناك هذا ، لأنه بلغنى أن أهل العراق يتطاولون على أهل الشام ، ويقولون : إن كانوا غلبونا على الدولة فلن يغلبونا على العلم والرواية ، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق منهم !

ثم جعل عبد الملك يردد على الشعبي أبيات ليلى حتى حفظها ، نالتى المخنصرة من يده — وهى إمارة[1] الإذن بالانصراف — فنهض الشعبي مودعاً

وخطر لعبد الملك أن ينتفع (بدبلوماسية) الشعبي ، فأوفده[2] إلى ملك الروم . قال الشعبي : فلما دخلت عليه جعل لا يسألنى عن شيء إلا أجبته ، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة فأسكنى عنده أياماً . فحين أردت الانصراف قال لى : أمن بيت الملكة أنت ؟ قلت : لا ، ولكننى رجل من العرب ... فدفع إلى رقعة خاصة وقال : إذا أدّيت الرسائل إلى صاحبك فسلمها إليه . فلما رجعت إلى عبد الملك ، دفعت إليه الرسائل ونسيت الرقعة ، ثم تذكرت بعد خروجى من الباب فكررت راجعاً ودفعتها إليه . فقال لى : هل قال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك ؟ قلت : نعم ، سألنى : أمن بيت الملكة أنت ؟ فقلت : لا ، ولكننى من العرب . ثم خرجت فما وصلت الباب حتى ردنى إليه فقال : أتدرى ما فى الرقعة ؟ قلت : لا . فنبذها إلىّ وقال : اقرأها . فقرأتها ؛ فإذا فيها : عجبت لقوم فيهم مثل هذا كيف ملّكوا غيره ؟ ! فاحتدمت غيظاً ، وصحت مرتجفاً : يا أمير المؤمنين ، والله لو علمت ما فيها ما حملتها ! وإنما قال هذا ، لأنه لم ير أمير المؤمنين ! فضحك عبد الملك وقال : أتدرى لم كتبها ؟ قلت : لا . قال : حسدنى عليك فأراد أن يغريني بقتلك ! ولكن غاب فأله ! فاذهب لا بأس عليك !

وقد نبل الشعبي فى عين عبد الملك وجلت مكانته ، فبالغ فى إكرامه وتقريبه منه ، حتى كان أول من يدخل إليه وآخر من يفارقه ! وصفوة القول : أن الشعبي فى دولة عبد الملك هو الأعمى فى دولة الرشيد .

على الجندى

(١) التاج (٢) ثمرات الأوراق ج ـ ١

الافصاح فى فقه اللغة

معجم عربى : خلاصة المخصص وسائر المعاجم العربية . يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويسعفك باللفظ حين يضرك المعنى . أقرته وزارة المعارف ، لا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، يقرب من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير . طبع دار الكتب ، ثمنه ٢٠ قرشا يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه:

محمد يوسف موسى ، عبد الفتاح الصعيدى